

المطربون والمطربات

هم الطابور الخامس في مصر

لأستاذ سبر قطب

يغرد الطير حين تمتلئ حوصلته بالحب والماء، فيحس الشبع والرى، ويخلص من مطالب الضرورة، ويسلم من المرض، ويطمئن من الأذى، فيحلو له الغناء، لأنه في أحسن أوقاته وأروح لحظاته.

نعم إن تغريد الطير قد يكون نداء للأنثى، وتعبيرا عن فورة الجنس ولكن هذا لا يخلو من دلالة تؤيد ما نرمي إليه، فالطير لا يطلب أنثاه حتى يكون جسمه سليما من العلة المعوقة، بل لا يطلبها قبل أن تكون في جسمه فضلة من النشاط فائضة عن حاجة للقفز والطيران. فالغناء في هذه الحالة هو كذلك دليل الصحة والقوة، لا دليل الضعف والمرض.

ذاك في أمة الطير وكذلك في أمة الإنسان، فهو لا يركن إلى الغناء وفي جسمه أو نفسه عائق من العوائق، وركونه للغناء معناه أنه أشبع ضروراته كلها وتطلع إلى آفاق أسمى من قيود البدن فيكون حينئذ في خير لحظاته وأنشط خطراته.

وقد يكون الغناء في الإنسان كذلك طالبا للأنثى، أو تعبيرا عن الحب الذي يسمو عن مطالب الجنس ويتجاوزها. فيكون في الحالة الأولى دليل الصحة البدنية، ويكون في الحالة الثانية دليل الصحة البدنية والروحية جميعا. ذلك أن الإنسان لا يطلب الأنثى ولا يحب، حتى يصح جسمه وتصح روحه، وحتى تكون لديه بعد هذا وذلك فضلة من النشاط الفائض عن مطالب الضرورة والحاجة يتطلب إنسانا آخر يكافئه.

فهو - والحالة هذه - في أصح حالاته وأملئها بالحيوية والنشاط والتطلع، وليس في حالة ضعف وانزواء.

بيد أننا ابتلينا في مصر بصورة للحب لا تتفق مع صورته في الطبيعة سواء أكان نداء للبدن أم هتافا للروح، فإذا هو أولا: تعبير عن أحط النزعات الحيوانية في الإنسان، وإذا هو ثانيا: تصوير لهذه النزعات المنحطة في حالة ضعفها ومرضاها وانحلالها، بحيث لا يرتقى للدلالة حتى على السلامة الحيوانية، التي يتمتع بها الطير والحيوان.

وإذا التعبير عن هذا الحب حشرجة وشهيق ودموع، وإذا التغنى به زفرات وآهات وأنين، وإذا نحن من هذا الغناء في مستشفى كبير تتردد فيه التأوهات، وصرعاه ما يكادون يفيقون من صرعة الداء الدفين.

وإنك لتحرك مشير المذيع إلى كل محطات العالم اللاسلكية فتسمع غناء وموسيقى تفهمها أو لا تفهمها، وتستريح إليهما أو لا تستريح، ولكنك تحس فيهما الصحة والسلامة. صحة البدن الحيوانية، أو صحة الروح الإنسانية. حتى إذا هبطت إلى مهر سمعت حشرجات المحتضر، وتأوهات الموضع، وتوسلات الذليل.

ولقد تكون صيحة الألم في بعض الحالات أدل على سلامة الفطرة وصدق الإحساس من نبرة الفرح، ونغمة الراحة، ولكنك في مصر لا تستمع إلى صيحة واحدة من صيحات الألم الصحيح في ذلك الغناء المريض. إنما هو تصنع الألم والتظاهر بالوجع. وإذا كان الألم الحقيقي محتملا - مع المضاضة - لأنه صادق، فالألم المصنوع أبغض شيء إلى النفوس.

وبعد فإنك تحار في تحديد التبعة في هذا الهبوط الذي نعانيه في الغناء والموسيقى: أتقع على عاتق المؤلف أو الملحن أم المغنى. والواقع أن الجميع

مستولون ، لأنهم - في الغالب - يجهلون مهمتهم ، ولا تهيب لهم ثقافتهم قيادة شعور الشعب ، وهي مهمة روحية واجتماعية لا يقوم بها إلا الأكفاء . فغالبية المؤلفين - حتى اليوم - من طبقة غير طبقة الشعراء الممتازين وهؤلاء لا يعرفون من العواطف الإنسانية إلا أسماءها وظواهرها وقلبا تخالج نفوسهم هذه العواطف التي يتكلفون التعبير عنها . وهذا وحده يكفي لسقوط الأغنية من ناحية التأليف . ولكن هؤلاء هم المقدمون عند المطربين والمطربات لقربهم من مستواهم الثقافي والنفسي ، وسرعة التفاهم بينهم لهذا السبب !

وقلما يطرق هؤلاء السادة إلا الغزل - والغزل على طريقتهم حشرة المحتضر ، وتأوهات المريض ، واستعطاف الذليل ولن يكون مرة واحدة ، فرحة الظافر ، ولا متعة الواجد ، ولا رجاء الوائق ، ولا ثورة الغاضب ، ولا فورة في الجسم أو الضمير .

فإذا تجاوزوه إلى الأغاني الحماسية ، تحت إلحاح النقاد وضغط الحوادث ، جاءت أغانيهم جافة كأنها رجم الحجارة ، لأنهم لا يستطيعون أن يحسوا فورة الشعور في فن من الفنون .

وطبقة الملحنين والموسيقيين عندنا لا ترتفع كثيرا عن طبقة المؤلفين المحترفين للأغاني والأناشيد ، ومرجع هذا إلى التسامح العجيب تجاه الملحن ، الذي لا يشترط فيه ثقافة عقلية ولا تجارب نفسية وحسب أى مخلوق كأننا من كان أن يتعلم السلم الموسيقي والمقامات والضروب ، وقليل أو كثيرا من « الهرموني » ليكون ملحنا أو موسيقيا كبتوه فن وموزارت !

ولست أدري لم لا نسمى كل من درس العروض شاعرا ، وأدوات الملحن في مصر لا تزيد على أدوات العروضى شيئا .

ومن هنا كان عمل الملحن هو التوفيق بين النغمات والأوزان ، يستوى عنده لحن الحزن ولحن الفرح إذا اتحدا في العروض !

وأعجب ما نسمع به للملحن ذلك الشيء الذى يقان له « تقاسيم » فماذا
تعنى هذه التقاسيم التى لاتعبر عن معنى خاص سوى التنعيم !

تصور شاعرا يجلس خمس دقائق مثلا ليسمعك على التوالى : « مستفعلن
فعل مستفعل فعل » أو « فعول مفاعلين فعول مفاعل » ! فهذا فى عالم الشعر يقابل
« التقاسيم » فى عالم الموسيقى . كلاهما أوزان لامعنى لها ولا حياة .

ويخيل إلى أن علة العلل فى فساد الغناء هو التلحين ، فقد أفلتت بعض
المقطوعات فى تأليفها من عيوب الضعف والتضع مثل « نشيد الجهاد »
وه « أغنية الجندول » ولكن الأولى خرجت من يد الملحن نواح مآتم مختلط
بالولولة والعويل . والثانية خرجت « مائعة » لا قوام لها ، ورجراجة لاتستطيع
إمساكها .

ولقد أفسد الملحنون فى مصر فطرة بعض المطربين والمطربات بتلحينهم
المتعارف « المائع » : فطربة مثل « اسمهان » كانت لها ميزة التعبير عن اللفظة
تحس فيها نداء الفطرة الحيوانية السليمة ، وهى ميزة تضطر أن نعتز بها فى هذا
الفقر المدقع مادامت سلامة الفطرة الإنسانية مطلبا خياليا فى عالم الغناء المصرى
ولكن التلحين الرخى ، والنغمات المتصنعة ذهبت أو كادت بهذه الميزة الفريدة
وأرجعت المطربة الحية المتفريزة إلى المستشفى الكبير الذى أقامه الملحنون !
ومطربة مثل « رئيسة عفيفى » تجيد الغناء الشعبى ، وفى روحها بساطة
الجمهور وخفته ، أغراها الملحنون بترك النغمات التى خلقت لها ، فذهبت إلى
المستشفى مع الأسف بعد أغنيتين اثنتين !

أما المغنى فهو ضحية التأليف والتلحين تارة ، وضحية الفطرة الممسوخة ،
والشخصية « المائعة » تارة ، وهو شريك لأصيل المؤلف والملحن فى الهبوط
بالغناء إلى هذا الدرك السحيق .

فإذا فرغنا من التأليف والتلحين والتغنى ، لم نفرغ من الأسباب الأصلية لتدهور الغناء ، فوراء هذا جميعه « ديموس » العظيم وراءه الجمهور الذى يستروح هذا الغناء ويحبه ويردده ، فبدل بهذا على عظم الكارثة ، ويشير إلى أن ممكن الداء أبعد من السطح المعروف ، وأنه ناخرواغل فى جسم الأمة إلى أبعد الحدود .

ولقد جلست إلى المذياع قريبا أستمع إلى « ما يطلبه المستمعون » فهالنى أن تكون كثرة ما يطلبون من أغانى الأفلام ، وهى أمراض الأغانى تأليفا وتلحينا وأداء .

هالنى هذا . فليست الكارثة أن يفسد ذوق المؤلف والملحن والمغنى ، ولكن الكارثة الحقيقية هى أن يفسد ذوق السامع لأنه هو الذى يملئ لهؤلاء جميعا فى التخنت الذميم . ولو صح ذوق الجمهور لأرغمهم جميعا على الصحة ، أو لنبذهم وترك الفرصة سائحة لغيرهم من الأصحاء . يظهرون .

ولقد هدتنى الملاحظة إلى شىء آخر ، وهوقوة الحاسة التجارية عند مطربينا ومطرباتنا ، فقد كانت تلبيتهم تامة للنوازع الهابطة فى النفس البشرية ، لأن هذه النوازع أشد وأقوى فى الجماهير ، فالرجح من ورائها أكثر وأضمن ، ولم يحاولوا مرة واحدة تلبية النوازع العالية لأنها أضعف فى نفوس الجماهير ، فالرجح ليس حينئذ بمضمون !

وأخيرا هانحن أولا . أمام الخطر فى حاجة إلى الصحة والسلامة فى النفوس وهذه الأغانى أخطر من « الطابور الخامس » فلا بد من علاج سريع مضمون وخير طريقة للعلاج فى نظرى ، تنظيم حملة قاسية واسعة النطاق لتهجين هذه الأغانى التى تسرى كالسم فى كيان الأمة وتسفيه الذوق السقيم الذى يملئها أو يتقبلها . وهذا الهدم يخلق فى النفوس قوة البناء فى التأليف والتلحين والغناء ويظهر الجو من الجراثيم التى تقتل الصحة والسلامة فى فطرة الجميع .

حلوان

سبر قطب